لونجينوس LONGINUS

عن الأسلوب السامى (الرفيع)

PERI HYPSOUS = On the Sublime

محمد حمدى إبراهيم

المؤلف

لانعلم شيئًا تقريبًا عن مؤلف كتاب الأسلوب السامى ، ولاحتى مجرد اسمه . ولكن من طبيعة هذا الكتاب ومحتوياته والطريقة المتبعة فى معالجته للموضوع اعتقد كثير من الباحثين أن هذا الكتاب قد تم تأليفه خلال القرن الأول الميلادى ، ربما كتصويب لعمل مفقود عن نفس الموضوع ألفه ناقد يدعى Cecilius ، كان صديقًا للعالم اللغوى الإغريقى "ديونيسيوس الهاليكارناسى" .

وربما كان هذا الارتباط بين "كيكيليوس" وبين "ديونسيوس الهاليكارناسى" هو الذى أدى فى العصور المتأخرة إلى نسبة هذا الكتاب خطأً إلى "ديونسيوس" . وهناك اتجاه آخر نشأ لدى بعض الباحثين كان من نتيجته أن نُسبَ هذا الكتاب إلى ناقد من القرن الثالث الميلادى يدعى "كاسيوس لونجينوس" : ذلك أن المخطوط الباريسى الذى يرجع تاريخ تدوينه إلى القرن العاشر الميلادى - وهو أقدم المخطوطات التى لدينا عن هذا الكتاب - ينسبه إلى "ديونيسيوس" أو إلى "لونجينوس" . ورغم خطأ هذه النسبة وعدم دقتها إلا أن الدارسين قد درجوا منذ ذلك التاريخ على نسبة هذا الكتاب إلى "لونجينوس"،وبوجه خاص لأننا حتى الآن نجهل من هو مؤلفه الحقيقى .

أما فيما يختص باسم "بوستوميوس تيرنتيانوس" Postumius Terentianus الذى ذكر المخطوط الباريسى أن هذا الكتاب قد أهدى إليه ، والذى ورد بالمخطوط خطأً أنه Postumius Florentianus ، فصاحبه مجهول تمامًا بالنسبة لنا حتى الآن . ولقد أثبتت الدراسات النقدية المتلاحقة أن نص الكتاب وصل إلى العصور الحديثة غير كامل ، بل يحتوى على أكثر من ست ثغرات تقدر بحوالى ٢٠ صفحة أو ما يقرب من ١٠٠٠ سطر . وبالرغم من هذه الخسارة الأدبية المؤسفة فإن ما يبعث على العزاء أن

الجزء المتبقى من الكتـاب يحمل معنى متكاملاً ومتناسقًا فى الوقـت نفسه ، بحيث يمكن أن يمدنا بفكرة كافية عن عظمة هذا الكتاب وأهميته لتاريخ النقد الأدبى .

الكتاب

والكلمة الإغريقية التى اختارها المؤلف عنوانًا للكتاب وهى hypsos تعنى "الشموخ" أو "العلو أو السمـو" ، ولكن استخدامها على يـد المؤلف فى ثنايا الكتاب يـدل على أنها تعنى "الأسلوب المتميز الرفيع" ، وعلى أنها تدل على سمو الفكر النابع عنه ذلك الأسلوب .

ويعرف لونجينوس الأسلوب الرفيع على أنه امتياز فى التعبير يتمكن عن طريقه المؤلف من اكتساب الشهرة الخالدة . وليست هناك فى لـغتنا العربية - فى حدود علمى - كلمة واحدة يمكن أن تحمـل كل هذه المعانى دفعة واحدة ، ولـقد شعر النقاد الأوروبيـين قبلنا بعجز لغاتهم عـن تقديم مصطلح يؤدى هذا المعنى بكفاءة . وفى الـوقت الحاضر يمكننا استخدام عبارة "الأسلوب السامى" أو "الأسلوب الرفيع" أو "عظمة الأسلوب" .

وبالرغم مـن أن "لونجينوس" يلجأ أحـيانًا إلى الاستطراد وإلى الخـروج عن الموضوع الرئيسى الذى يعالجه ، إلا أنه لم يفقد زمام السيطرة على موضوعه بحال من الأحوال ؛ إذ كان تركيزه دومًا على الصفات والخصائص والوسائل التى يتمكن عن طريقها الكاتب من بلوغ مستوى الأسلوب السامى ، أو التى تؤثر على وصوله إلى ذلك الهدف . وبعد أن يقوم "لونجينوس" بتعريف اصطلاح السمو يطرح من جانبه سؤالاً وهو : هل هناك حقًا مثل هذا الأسلـوب الرفيع فى الأدب ؟ وتعيد إجـابة لونجينوس إلى أذهاننـا ما سبق أن سمعناه من "هوراتـيوس" ومن غيره من النقاد : فهو يرى أن الأسلـوب الرفيع أمر فطرى وهبة موروثة لابد مـن تعهدها بالتثقيـف والعناية والصقل عن طريـق عدة وسائل ، من بينـها محاكاة الكُتـاب الذين اشتهـر عنهم التـمكن من الأسلوب الـرفيع والعمـل على الوصول إلى مستواهم المتميز . إن المهارة فى نظر "لونجينوس" ضرورية إذا ما أردنا للموهبة الفطرية أن تؤتى ثمارها وتصل إلى الغاية المرجوة منها .

"ولونجيـنوس" واقعى فهو لايـتوقع من أى كاتب أن يـظل دائمًا وأبدًا محافـظًا على مستوى من السمو فـى الأسلوب لايعتوره الفتور ولايتطرق إليه الـوهن ، وهو يعتقد أن "هوميروس" شبيه الآلهة فى عظمته، و"أفلاطون" النجم الساطع فى سماء الفكر الإغريقى، لهما زلاتهما وهفواتهما . ومن رأيه أيضًا أن كثيرًا من الكُتاب الآخرين لايستطيعون الاحتفاظ

بالمرتبة الشامخة التى بلغوها ، لأن الاحتفاظ بالقمة أمر عسير التحقيق . إن الكاتب الذى يومض أحيانًا بالعبقرية فيصل إلى الأسلوب الرفيع يُعد فى نظر "لونجينوس" أفضل من ذلك الذى يتقن كل جزء من عمله على حدة ولكنه ، مثل "هيبريديس" الخطيب الأثينى ، يفشل فى الوصول إلى الشموخ عن طريق عمله ككل .

ويدور صلب هذه المقالة النقدية حول مناقشة وتوضيح خمسة مصادر للأسلوب الرفيع : أولها وأهمها (فصول ٨-١٥) هو عظمة الفكرة ومقدرة الكاتب على خلق تصورات سامية ، ويتوفر هذا المصدر عندما يتحلى الكاتب بروح نبيلة أو شخصية سامية ؛ ويضرب لنا "لونجينوس" مثلاً توضيحيًا على ذلك من شعر "هوميروس" ومن "سفر التكوين" . وقد يتأتى ذلك من الاختيار الملائم للألفاظ وللموضوع ، ومن ترتيب العناصر المؤلفة للأسلوب ؛ وهنا يمتعنا "لونجينوس" بتحليل رائع لإحدى قصائد الشاعرة "سابفو" . وبعد أن يتحدث المؤلف عن الأخيلة يصل بنا إلى المصدر الثانى وهو العاطفة القوية الملهمة ، ولكنه لايحلل هذا المصدر أو يشرحه كما فعل مع المصدر الأول بل وعد بالعودة للحديث عنه فى كتاب مستقل . أما المصدر الثالث للأسلوب الرفيع (فصول ١٦-٢٩) فهو الاستخدام المؤثر والفعال للأساليب الريتوربقية ، ويوضح لنا "لونجينوس" أن أفضل استخدام للمحسنات البديعية هو استخدامها دون أن يشعر الكاتب بأنه يستعين بها ، أو كما نقول الآن أن تظهر فى الأسلوب عن طريق "اللاوعى" . والمصدر الرابع (فصول ٣٠-٣٨) هو استخدام التعبيرات السامية والمفردات الجيدة ، ويتضمن هذا الاستخدام الماهر للاستعارات والكناية والمجاز والتشبيه وما إلى ذلك من فنون البلاغة . والمصدر الخامس والأخير (فصل ٣٩-٤٠) هو التأليف الشامخ الجليل : بمعنى إصرار الكاتب على ترتيب كلماته وصياغة عباراته من أجل أن تفلح فى إعطاء الأثر الفعّال ، وبحيث يتحقق عن طريقها مفهوم الوحدة العضوية .

ويعتبر كتاب الأسلوب الرفيع إضافة هامة لها وزنها فى مجال تاريخ النقد الأدبى ، حيث إن مؤلفه لايكف ما بين الحين والآخر عن ضرب الأمثلة وعن الشرح والتوضيح وعن التحليل الذى ينم عن مقدرة نقدية وحس أدبى مرهف وعن تذوق فريد لأساليب التعبير الجمالية . ولقد أشار "لونجينوس" إلى بداية "سفر التكوين" Genesis ، أول أسفار العهد القديم، وهو كتاب اليهود المقدس الذى نعرفه باسم « التوراة » ، وهى الفقرة التى يمكن ترجمتها على النحو التالى :

« فى البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض قفرًا وقاعًا صفصفًا ، وعلى وجه القمر ظلمة . وكان روح الله يسرى على الماء وقال الله للنور كن فكان ، ثم رأى الله أن النور جميل ففصل الله النور عن الظلمة . ثم سمى الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلاً » .

وهذه الإشارة من الأهمية بمكان لأنها تدعونا إلى التأمل فى مدى انتشار "التوراة" فى عصر "لونجينوس" ، ولكنها لاتوضح لنا ما إذا كان "لونجينوس" قد استشهد بهذه الفقرة من الذاكرة أم أنه قرأها بنفسه عند اطلاعه على الترجمة السبعينية ، وهناك احتمال فى أنه اقتبسها عن كتاب "كيكيليوس" سالف الذكر أو عن أى كتاب آخر ؛ كما أن البعض يرى - وهى مجرد وجهة نظر متشككة - أن هذه فقرة مزيفة أقحمت على الرسالة فى عصر متأخر .

مثل هذه الاستشهادات من المصادر الأدبية المتعددة تضع "لونجينوس" فى منزلة الحكم الممتاز والناقد الخبير . كذلك فإن استشهاده بأعمال "هوميروس" و"أفلاطون" و"ديموستينيس" ، وفى تعليقاته المدهشة على قصيدة "سابفو" التى استشهد بها ، وفى عقده مقارنة بين كل من "ديموستينيس" و"شيشرون" وبين كل من "ديموستينيس" و"هيبريديس" ما يجعلنا ندهش لسعة اطلاعه ولعمق آرائه النقدية . ومن أجل هذه الميزات استحق اسم "لونجينوس" أن يدرج فى قائمة أعظم نقاد الأدب فى العصر الكلاسيكى . إن "لونجينوس" ليس أول ناقد رومانسى فحسب بل هو أيضًا أول ناقد للأدب المقارن قبل أن يعرف الناس كيفية مقارنة أدب بأدب مدون بلغة أخرى . إنه كتاب يعرض وجهة نظر معلم يستعرض الأعمال الأدبية العظيمة أكثر من كونه تحليلاً صادرًا عن فيلسوف منظر ، والأدب الذى يشغله هو ذلك الأدب القادر على منح المتعة . وهو يتحدث فى كتابه كإنسان إلى صديق له يتمتع بذوق مائل ، فينقل له تلك الأجزاء التى بدت له من أعظم الأعمال الأدبية براعة ثم يشرح له سر براعتها . و"لونجينوس" على خلاف "أرسطو" لايهتم بتاريخ الأدب ولايركز على أنماط منه مثل "الملحمة" و"التراجيديا" ولايقوم بدراسة نظرية الأدب ، بل يهتم بالعبارة أو بالفقرة أو بالقصيدة التى تجعل ذهنه يضطرم بشعلة متأججة : فليس الشكل بمعناه الواسع هو الذى يؤلف أهمية فائقة بالنسبة له ، بل وضع نصب عينه إيضاح القصائد القصيرة أو الأجزاء المستقلة من كل عمل ينال إعجابه .

محتويات الكتاب

فى البداية يقوم "لونجينوس" بتعريف الأسلوب الرفيع فيوضح أنه مهارة فى التعبير نابعة من المصدر الذى يستمد منه عظام الشعراء والأدباء سموهم ويحققون عن طريقه الشهرة الخالدة . ويبين أن أثر الفن الرفيع يكمن فى العظمة التى لايقاوم احتمالها والتى تبسط سلطانها على كل مستمع . ومن رأيه أن المهارة فى الابتكار والنظام الدقيق وترتيب الأفكار تؤلف فيما بينها مزيجًا يبدو كخلاصة فريدة بعيدة المنال ، وليست نتاج عامل واحد أو عاملين بل هى وليدة النسيج كله والتركيب برمته . والرفعة التى يتطلع إليها "لونجينوس" تتبلج مشرقة فى اللحظة المناسبة ، وتبعثر أمامها كل شئ كالصاعقة ، وتعرض علينا قدرة الكاتب بكل عظمتها وكمالها : إنها نار يتبلج منها النور وليست شعلة يتصاعد منها الدخان .

وبالرغم من أن "لونجينوس" يعتقد بوجوب وجود ضوابط على العبقرية حتى لايكتب الشاعر نوعًا من شقشقة اللسان ، إلا أن اهتمامه كان ينصب أساسًا على العبقرية التى تتخطى كل القواعد ؛ ولسوء الحظ يحتوى المخطوط على ثغرة بعد هذه النقطة . بعد هذا الجزء يعود "لونجينوس" للحديث عن الأخطاء التى يجب على الأديب المبدع تجنبها ، ويعطى أمثلة على السمو الزائف والعبارات الطنانة وشحنات الإحساس التى لاتقدم فى وقتها الملائم فتسبب الملل والفتور . ولايقنن "لونجينوس" هذه العناصر عن طريق القواعد بل يحتكم عند عرضها إلى ذوقه ، كما يبدى قلقه من ظاهرة جنون البحث عن الجديد أو الولع بالغريب ، وهو اتجاه انتشر بصورة ملحوظة فى عصره كما هو الحال فى كل فترة من فترات اضمحلال الأدب ؛ ولكن ناقدنا يرى أنه ليس هناك طريق معبد أو درب ممهد لتجنب الوقوع فى مزالق هذه الهوة . ويعتقد "لونجينوس" أننا نصل إلى الحكم الصائب فى مجال الأدب من خلال الخبرة الطويلة ، وأن الذين يتمتعون بهذه الخبرة هم وحدهم القادرون على التمييز بين ما هو حقيقى وبين ما هو زائف .

لقد قام "لونجينوس" بتعريف المهارة الحقيقية الكامنة خلف الإبداع ، ولكن تعريفه نقد عدة مرات ، تحت زعم مؤداه أن من المشكوك فيه وجود علاقة بين زيادة معرفتنا بمزيد من الثقافات ذات التقاليد المختلفة وبين قدرة العمل الأدبى على منح الإمتاع فى كل العصور لأولئك الذين يعرفون هذه الثقافات المختلفة . وانطلاقًا من هذا التصور يقول هؤلاء النقاد إننا قد نقرّ بامتياز الموسيقى الصينية ، لا على أساس ما تبعثه فى نفوسنا من متعة ،

بل على أساس ما نسمعه من الصينيين عن روعتها . ورغم هذه الاعتراضات فإن تعريف "لونجينوس" يتضمن كثيراً من الصدق ، على الأقل فى حدود خبراتنا التى تجعلنا نحس فى عالمنا المعاصر بأننا أكثر تذوقاً للآداب الأجنبية بل وربما أكثر تفضيلاً لها .

بعد ذلك يوضح لنا "لونجينوس" أن هناك خمسة ينابيع للبلاغة يرتبها على النحو التالى :

١- قبضة محكمة على الأفكار .

٢- مشاعر متأججة وملهمة .

٣- ترتيب مناسب للمفردات .

٤- لغة واضحة وسهلة .

٥- قدرة على التأثير الكبير المؤدى إلى العظمة والسمو .

ويبدو أن "لونجينوس" يختلف مع نظرية "أرسطو" عن التطهير ، فهو يخبرنا بأن هناك بعض المشاعر الوصفية الخالية من الرفعة مثل الشفقة والخوف والقلق . كذلك ففى إقراره بأن المهارة الحقة تسمو بنا ما يتعارض مع ما ساقه "أرسطو" فى تعريفه الشهير للتراجيديا .

وفى الجزء الثانى من الكتاب يتناول "لونجينوس" كل مصدر من المصادر الخمسة بالتفصيل والشرح ، ويصرح بأنه لابد من الاتصاف بالعظمة إذا أردنا أن تكون لنا أفكار عظيمة ، لأن مثل هذه الأفكار لاتكون فى متناول ذوى السلوك الوضيع أو ذوى الأطماع والنزعات الشريرة . وكمثال على السمو النابع من عظمة المصدر الذى نبعت منه الأفكار يستشهد "لونجينوس" بالعهد القديم فيقول : (إن المشرع اليهودى لايبدو لنا إنسانًا عاديًا حينما يكتب : « قال الله ... ماذا قال ؟ ليكن هناك نور ، فكان هناك نور . وليكن هناك أرض ، فكانت هناك أرض ») . وفى هذا الجزء الممتع للغاية من الكتاب يقارن "لونجينوس" الأوديسية بالإلياذة ، ثم ينقل قصيدة رائعة للشاعرة "سابفو" فيكون له بذلك فضل الاحتفاظ بها للأجيال التالية ، حيث إنها لم ترد فى المخطوطات .

ومن الصعب أن نصف كل الجوانب المتعددة للمهارات التى جاء ذكرها فى كتاب "لونجينوس" ، ولكن أهم ما فيه هو أنه يجعلنا نستوثق من عظمة أى عمل أدبى عن طريق استجابتنا له بما نملك من قدرات عقلية وأحاسيس متنوعة . ولم يفلح "لونجينوس" رغم تفوقه فى تجنب أخطاء كانت تسود عصره : فلقد أنفق جهدًا كبيرًا فى دراسة أخطاء

التراكيب اللغوية ، ربما كان الأجدى بالنسبة لنا لو أنه أنفقه فى دراسة موضوعات أخرى أكثر إلحاحًا وأهمية . لكنه رغم ذلك قد زودنا بأمثلة كثيرة تشهد على حسن ذوقه وعلى حسه الأدبى المرهف . إنه يعتقد أن الأسلوب الرفيع أمر تسهل معرفته وهناك قوة تجعلنا ننزع إليه ، لأن بداخل كل منا نزعة تتوق إلى ما هو عظيم ونبيل .

إن أفكار "لونجينوس" بوجه عام لاتمت إلى "هوراتيوس" ولاتنتمى إلى الكلاسيكية الحديثة ، فهو يعتقد أن كل ما هو صحيح من الأفكار هو الذى يصمد أمام الانتقاد ، وأن العظمة الحقيقية هى التى تحوز الإعجاب فى نفس كل منا بدرجة تكاد تكون متساوية . ولأن "لونجينوس" عاش فى عصر اضمحل فيه الإبداع وغابت فيه الحرية السياسية والروح الديمقراطية الأصيلة ، فهو يختتم كتابه بتساؤل ينطوى على التعجب : هل توافق الأدب اليونانى مع الديمقراطية ؟ وهل الحرية وحدها قادرة على احتضان العبقرية وعلى شحنها بالآمال الكبار ؟ إن "لونجينوس" لم يجب على هذا التساؤل ورغم ذلك فنحن لانشك فى اقتناعه بقدرة الحرية على احتضان العبقرية وتغذيتها . فناقدنا لايلقى بالآراء جزافًا ولايتسرع فى إصدار الأحكام ، وتشككه يرجع إلى أنه لم يعش فى مثل هذا العصر ولم يحس بما كان يدور فيه من إرهاصات وتأثيرات ؛ وأيًا كان الأمر فالإجابة على مثل هذا التساؤل لاتمس جوهر الموضوع .

مختارات من نص مقال لونجينوس النقدى

الفصل الأول

« إن الرفعة Hypsos = Sublimity تكمن امتياز خاص وتفوق فى التعبير لاينبع من أى مصدر آخر سوى من هذا المصدر الذى يستمد منه أعظم الشعراء والمؤرخين امتيازهم ويحققون عن طريقه الشهرة الخالدة . ذلك أن أثر اللغة السامية على السامعين لايكمن فى استمالتهم بل فى خلب ألبابهم ، وإن ما ينقلنا إلى العجب والدهشة فى كل وقت وبشتى الطرق لهو أشد أثرًا مما يستميلنا أو يرضينا . وفى العادة فإن بوسعنا التحكم فى الاستمالة ، لكن أثر هذه الأجزاء السامية يكمن فى قوتها التى لاتقاوم وفى امتيازها وفى سلطانها الذى تبسطه على كل مستمع .

وبالمثل فإن المهارة فى الابتكار والترتيب السليم وتنظيم المادة أمور لاتتجلى فى مجرد لمسة واحدة ماهرة هنا أو هناك ، ولكنها تكشف عن نفسها بدرجات متأنية من خلال نسيج التركيب بأسره . ومن ناحية أخرى فإن شرارة الرفعة التى تشرق فى اللحظة المناسبة ، تبعثر أمامها كل شئ كنور البرق ، وفى ومضة واحدة تكشف لنا قوة المتحدث فى كل كمالها » .

الفصل الثانى

« قبل أن أمضى (فى حديثى) قُدمًا أرى لزامًا علىّ أن أطرح سؤالاً : هل هناك ما يمكن أن نطلق عليه اسم الفن السامى أو الفن الرفيع ؟ ذلك أن البعض يعتقدون أن من يتحدثون عن أمور من هذا القبيل بغية وضع قوانين للفن ليسوا على صواب ؛ فالعبقرية فى نظرهم أمر فطرى وليست بالموضوع الذى يمكن أن يُعلم وأن الطبيعة دون سواها هى المتسببة فى وجودها . ويرون كذلك أن الأعمال الناتجة من العبقرية تفسد حينما يتم إخضاعها لقواعد (صماء) وقوانين جافة .

ولكنى أعتقد رغم ذلك أن هناك وجهة نظر مخالفة ، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الطبيعة رغم كونها خاضعة فى الأساس لقوانين هى من صنعها ، عندما يكون الأمر متعلقًا بالإحساسات السامية ، إلا أنها ليست متروكة فى فعلها للصدفة

العشوائية دون قاعدة أو نظام . حقًا إن الطبيعة هى المنشأ الأول والمبدأ الأساسى الخلاق الذى تنبع منه كل الأنشطة الحيوية ، ولكن وظيفة المنهج هى تحديد درجة النشاط واللحظة المناسبة له ووضع القواعد الواضحة للاستخدام والتطبيق.وعلاوة على ذلك فإن الدوافع السامية تكون عرضة لأخطار جسام حينما تترك لشأنها ، دون أن تحظى من المعرفة بما يكفل لها الاستقرار والتوازن : إنها تحتاج لشكيمة تكبح جماحها بنفس القدر الذى تحتاج به إلى مهماز يحثها على الانطلاق .

وإن ديموسثينيس ،عندما يتطرق للحديث عن حياة البشر بوجه عام ، يعلن أن أعظم النعم على الإطلاق هى الحظ السعيد ومن بعده مباشرة يأتى النصح السديد ، الذى لايقل عن الحظ أهمية ؛ حيث إن غياب النصح يقود إلى دمار محق يذهب بكل الخير الذى يأتى به الحظ . ولو طبقنا هذه المقولة على الأسلوب يمكننا القول بأن الطبيعة تعادل فى المكانة الحظ السعيد ، وأن الفن (= المهارة) يعادل النصح السديد. ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أن بعضًا من المؤثرات اللغوية المستمدة من الطبيعة وحدها ، لايمكن الحصول عليها من أى مصدر آخر سوى الفن . . . . . » .

الفصل الثالث

« والآن فيما يخص التراچيديا التى هى بطبيعتها سامية جليلة ، فرغم كونها تسمح بشئ من فخامة الأسلوب ؛ إلا أن اللجوء إلى الأسلوب الطنان فيها فى غير موضعه أمر لايغتفر ، فهذا الأسلوب الطنان قد يكون أقل ملاءمة فيما أعتقد بالنسبة للسرد الواقعى . لهذا السبب يضحك الناس على جورجياس من ليونتينى (ريتوريقى وسوفسطائى صقلى من القرن الخامس ق . م.) حينما يكتب : « اجزركسيس ، زيوس الفرس » ، أو حينما يصف الصقور بأنها « قبور حية » . وبالمثل فهناك تعبيرات معينة للمؤرخ كاليسثينيس (مؤرخ حملة الاسكندر الأكبر ، عاش فى الفترة من أواخر القرن الرابع إلى أوائل القرن الثالث ق . م .) تدعو للسخرية بسبب أنها طنانة غير سامية . وأكثر منها مدعاة للسخرية بعض تعبيرات كليتارخوس (مؤرخ معاصر لكاليسثينيس) ، وهو كاتب عابث - على حد تعبير سوفوكليس - « يعزف على مزمار دون أن يمتلك القدرة على ضبط النفخ » . . . إن أمثال هؤلاء الكُتّاب يظنون فى أنفسهم الإلهام ، ولكنهم ليسوا ملهمين بحال من الأحوال ، بل إنهم فى مسلكهم أقرب إلى التصرف

الصبيانى . إن الأسلوب الفخيم الطنان هو بوجه عام أفظع المثالب التى ينبغى الاحتراس من الانزلاق إليها ، فكل أولئك الذين يهدفون إلى العظمة بشكل أو بآخر أملاً فى الهروب من تهمة فقر الأسلوب وجفافه ، يسقطون بطبيعة الحال فى هوة الأسلوب الطنان ، وكأنهم يؤمنون بالمثل القائل : « إن العجز عن بلوغ هدف عظيم هو على أية حال فشل نبيل » . إن التورم يعتبر أمرًا مذمومًا سواء فى الجسم البشرى أو فى الأسلوب (الأدبى) . . . .

الأسلوب الطنان إذن ما هو إلا نتيجة للرغبة فى التفوق على الأسلوب الرفيع . وفى المقابل فإن الركاكة تقف على طرفى نقيض من العظمة ، حيث إنها تنم عن روح ضحلة وتكشف عن قلب خاوٍ ؛ وهو (ما نعتبره) أشد الأخطاء جسامة وأكثرها مدعاة للازدراء . ما هى الركاكة إذن ؟ إنها بالتأكيد ليست إلا مجرد فكرة يتم تنميقها بتحذلق إلى أن تسقط فى مهاوى البرود والفتور ! إذ ينزلق الكتاب إلى هذا النوع من الخطأ حينما يجهدون أنفسهم فى البحث عن تأثيرات منمقة وغير عادية ، وينشدون فوق كل اعتبار الاستمالة والإبهار ؛ لكنهم بدلاً من بلوغ ذلك الهدف يسقطون فى شراك الأسلوب المزخرف الفخم وفى مهاوى الحذلقة والتكلف .

. . . . وهناك نوع ثالث من الأخطاء التى تعوق الوصول إلى الأسلوب الرفيع ، وهو ما يعرف بالإحساس الكاذب أو نقيض صدق الإحساس : فالكُتّاب يسرفون فى الشحن العاطفى لموقف لايتطلب كثرة الأحاسيس ، أو على العكس من ذلك يبترون العاطفة حيث ينبغى إثراؤها أو إبرازها . وبعض الكُتّاب - كما لو كان واقعًا تحت تأثير السُكْر - يتفجر بالعاطفة فى سياق تبدو فيه الأحاسيس زائدة وبلاضرورة ، فيحس الناس أنه مضجر ممل : ففى الوقت الذى يصل فيه الكاتب إلى قمة الانفعال يكون جمهوره أبعد ما يكون عن هذا الإحساس . وعلى أية حال فإننى أترك كل القضايا المتعلقة بالأحاسيس والمشاعر لأفرد لها دراسة قائمة بذاتها فى موضع آخر » .

الفصل الخامس

« إن معظم أوجه القصور فى الأدب ترجع إلى سبب واحد ، هو الولع الشديد بالأفكار الجديدة إلى درجة الجنون ، هو أمر سائد بين كُتّابنا فى الآونة الحاضرة : فالحق أن مثالبنا تنبع فى مجملها من نفس المصادر التى تنبثق منها فضائلنا . وهكذا فإن

الأسلوب الرفيع والمدركات السامية والتعبيرات الممتازة تهدف كلها إلى التأليف المؤثر ، ومع ذلك فإن نفس هذه الأمور التى ذكرناها هى الأساس وهى الأصل ، لا فى النجاح فقط بل أيضًا فيما هو عكس ذلك . . . . . » .

الفصل السابع

« ينبغى أن يكون مفهومًا ، أيها الصديق العزيز ، أنه لاشئ يبلغ - فى الحياة البشرية - من العظمة حدًا يمنعنا من ازدرائه ؛ وكذلك الحال مع الأسلوب الرفيع . فالثروة والشهرة والسلطة وكل ما نضعه فى حياتنا موضوع الصدارة وما نصفه بالروعة ، كلها أمور قد لاتبدو فى نظر الرجل الحكيم نعمًا عظيمة ، حيث إن الترفع عن السعى إليها يعتبر فضيلة محمودة. ومما لاشك فيه أن الناس ينظرون بعين الإكبار إلى من يمتلك هذه النعم ، غير أن إعجابهم يزداد بمن يكون بوسعه امتلاكها ولكنه من الحكمة بحيث يعزف عن حيازتها .

لابد لنا إذن من النظر إلى الأدب وإلى الأسلوب الرفيع باعتباره أمرًا مماثلاً : فهناك من الأعمال ما يثقله مؤلفه بالمحسنات ذات البريق ويدونه بالأسلوب الفخيم الطنان سعيًا وراء السمو ، ولكن أجزاء (كثيرة) منه تعجز عن منحنا الإحساس بعظمته وتأثيره رغم سعى الكاتب لبلوغ هذا الهدف . وفى المقابل هناك أعمال أخرى تصل إلى التأثير المطلوب ببساطة متناهية ورفعة حقيقية بدون البريق ولا الطنطنة . وفى الحالة الأولى نكون أقرب إلى ازدراء العمل رغم سعى كاتبه لإبهارنا ، أما فى الحالة الثانية فنجد أنفسنا منساقين إلى الإعجاب بالعمل .

إن الرفعة الحقيقية تسمو بأرواحنا عن طريق قوة فطرية ، فنمتلئ إعجابًا وتحلق مشاعرنا إلى آفاق أسمى ، ونحس بزهو وسعادة كما لو كنا نحن الذين ابتكرنا بأنفسنا ذلك الأسلوب الذى سمعناه (أو قرأناه) . فعندما يسمع إنسان ذكى ومثقف مقطوعة أدبية عدة مرات دون أن تمس مشاعره ، ودون أن تخلق لديه الإحساس بالسمو أو تمده بزادٍ يغذى عقله أبعد من الكلمات المدونة بها ؛ وحنما يكتشف أنه كلما أخضعها للفحص الدقيق المتأنى كلما فقدت تأثيرها اللحظى عليه ، فمعنى هذا أن مثل هذه القطعة الأدبية لايمكن اعتبارها مثالاً حقيقيًا على الأسلوب الرفيع ، لأنها ببساطة لاتظل حية بعد سماعها للمرة الأولى .

إن المقطوعة الأدبية تكـون فعلاً سامية حينما تصمد طويـلاً أمام الفحص المتكرر ، وعندما يكون من الصـعب - أو بالأحرى من المستحيل - مقاومة تأثـيرها وقدرتها على الجذب ، وعندما تظل دومًا ثابتة فى ذاكرتنا دون أن تفلح قوة ما فى محوها أو طمسها . وبوجه عام يمكن القول بأن عظمة التعبير تكمن حقًا فى تلك الأعمال التى تمتع الناس فى كل العصور والأوقات : فعندما يوجد أشخاص يختـلفون فى مهنهم وفى طرائق حياتهم وفى طموحـاتهم وفى أعمارهم وفـى لغاتهم ، ويفكـرون رغم ذلك بنفس الطـريقة فى حكمهم على نفـس العمل الأدبى ، فمعنى ذلك أن الحكم الجماعـى الصادر عنهم على الأسلوب الأدبى هـو حكم صائب لايتزعزع ، وأن إعـجابهم به لايمكن أن يـكون وليد المصادفة بل هو إعجاب موضوعى مرتكز على أسس ثابتة ودعائم وطيدة .

الفصل الثامن

« قد يُقال إن هناك وبصفة خاصة خمسـة مصادر مثمرة للأسلوب الرفيع ، وتحت هذه المصادر الخمسة تقـوم السيطرة على اللغة كأساس مشتـرك ، إذ بدونها لايمكن عمل شئ يستحـق الذكر . أول هذه المصادر وأهمهـا هو المقدرة على خلق تـصورات سامية - كما أوضحت فى تعليـقى على«كسينوفون». ويأتى فى المرتبة الثانـية الدافع إلى العاطفة القوية والملـهمة ؛ وهذان العنصران مـن عناصر الرفعة فطـريان لدرجة كبيرة جدًا بـينما العناصر الـباقية ثمرة من ثمار الـفن (= الخبرة أو المهارة) . ونعنى بـذلك الاستخدام المناسـب لطرازين مـن طرز الريتـوريقا (= البـلاغة) : الأسلوب الـبلاغى للـفكرة ، وأسلوب التعبير اللـفظى جنبًا إلى جنب مع ابتكار البيان العـظيم ، الذى يتحول بدوره إلى اختيار الألفاظ واسـتخدام المجاز وتنميق الأسلوب . أما المصـدر الخامس الذى يضم كل تلك العناصر فقد ذكرته توًا ، وهو التأثير الشامل الناتج عن الجلال والرفعة ... » .

الفصل التاسع

« السمو هو صـدى التفكير العظيـم . وعلى هذا فحتى دون كلام يُلـفظ فإن فكرة بسيطة يمكن أحيانًا بمفردها أن تثير الإعجاب بـسبب صدورها عن العقل النبيل الذى عبر عنهـا . وعلى سبيـل المثال فإن صمـت أياس عند « اسـتحضار أرواح الموتـى » صمت جـليل ، أكثر سموًا من أية كلمات .

وفى البداية نجد من الضرورى بكل تأكيد أن نوضح مصدر تلك المقدرة ونبين كيف أن الشخص المفوه حقيقة يتمتع بعقل ليس وضيعًا ولامحتقرًا . فليس من اليسير على أولئك الذين يتصفون طوال حياتهم بالأفكار المتداعية والأهداف الوضيعة أن يبدعوا شيئًا يثير الإعجاب أو يصبح جديرًا بالشهرة الخالدة . . . .

وكذلك فإن من وهب اليهود ناموسهم ، وهو ليس بالشخص العادى ، عندما صاغ مفهومه السامى عن قدرة الرب المقدس ، منح هذا التصور تعبيرًا مميزًا حينما كتب فى بداية أسفاره : « قال الله . . . . ماذا قال ؟ ليكن هناك نور ، فكان هناك نور . ولتكن هناك أرض ، فكانت هناك أرض » .

الفصل الخامس والثلاثون

« لقد صاغتنا الطبيعة نحن بنى البشر ، لا لكى نغدو مخلوقات حقيرة أو وضيعة ؛ بل إنها أدخلتنا إلى الحياة وإلى الكون المترامى الأطراف كما لو كانت تدعونا إلى حضور احتفال عظيم مهيب ، كى نصبح فيه بمثابة المشاهدين لكل ما قامت هى (أى الطبيعة) بخلقه ، ولكى نصير أكثر الكائنات شوقًا إلى الشهرة . وهكذا زرعت الطبيعة فى أرواحنا منذ البدء عاطفة لاتقهر لكل ما هو عظيم وتجاه كل ما يفوقنا قدسية .

ومن أجل هذا السبب فإن الكون بأسره لايكفى للتأمل والتفكر الكامن فى مجال الطاقة البشرية ؛ وإن فكرنا ليتجاوز الحدود التى خلقنا فى نطاقها . ولكن إذا ما تفحصنا الحياة من كل جوانبها لنرى كيف أن كل أمر يتعلق بنا - مما هو غير عادى وجليل وجميل - يلعب دورًا رائدًا فى حياتنا ، فسوف نتحقق آنذاك من مغزى الخلق . . . . » .

الفصل الرابع والأربعون

« من اليسير ، ياسيدى الفاضل ، وهذا أمر وثيق الصلة بخصال البشر وطبيعتهم ، أن ننقب عن الخطأ فى العصر الراهن الذى فيه نحيا . ومع ذلك فعلينا أن نفكر فيما إذا كان السلام الذى ينعم به عالمنا هذا الآن هو المتسبب حقًا فى إفساد السجايا النبيلة ! فى اعتقادى أن هناك ما هو أكثر بالأحرى من ذلك ، ألا وهو تلك الحرب التى لانهاية لها

والتى تستحوذ على رغباتنا فى قبضتها . بل وأبعد من ذلك فإن السبب هو الأهواء التى تزخر بها حياتنا المعاصرة والتى تخرب هذه الحياة تخريبًا كاملاً . إن حب المال - العلة التى لاترتوى والتى نعانى منها جميعًا بشدة - وكذلك حب المتعة يجعل منا عبيدًا ، لهذه الأهواء ، وبالأحرى يمكننا القول بأنها تجرنا جسدًا وروحًا إلى الأعماق . إن حب المال وعشق الثراء مرض يهوى بنا إلى الانحطاط الفكرى ، وحب المتعة يجعل منا مخلوقات أشد ما تكون وضاعة . . . . » .

« وباختصار فأنا أؤكد أن ما يستنفد روح الجيل الحالى هو اللامبالاة التى نصرف فيها جميعًا - فيما عدا حالات استثنائية - حيواتنا ؛ فنحن لانعمل ولانبدى أى بادرة على العمل من أى دافع آخر خلاف تلك الدوافع التى تلقى الثناء من ملذاتنا ، أو التى بوسع ملذاتنا أن تجد فيها المتعة . إننا لانعمل على الإطلاق بدافع من الحماس والرغبة النبيلة المشرفة لخدمة بنى أرومتنا (من البشر) . . . . » .